

## دمشق ..

## في مطلع القرن العشرين

نصر الدين البَحْرة

هذا الكتاب « دمشق في مطلع القرن العشرين » الذي حققه علي جميل نعيمة ، يروي المؤلف أحمد حلمي العلاف هذا الخبر : (في)  
 « كان الطبيب الرسمي يستخدم لديه بعض الجنود ، فيمضي سنتين ، يخرج من بين يديه طبيباً أو جراحاً عند انتهاء مدة خدمته الإلزامية وعودته الى وطنه وأهله . فكان في دمشق طبيب جراح مشهور يدعى « السر طبيب عثمان باشا » فتخرج على يديه الكثيرون وتوزعوا في البلاد أطباء رسميين بأيديهم شهادة رسمية من يده ، يزاولون الطب والجراحة ويفتكون في الناس على غير هدى » .

هكذا اذن . إن الكاتب يُعنى في الصفحات التي خطها بتدوين التاريخ الاجتماعي للمدينة ، وكان المؤرخون « حتى القرن التاسع عشر يهتمون بالتاريخ السياسي فقط . . . . ولكن منذ القرن الثامن عشر بدأ بعض المفكرين يوجهون أنظار الناس إلى نوع جديد من التاريخ هو التاريخ الاجتماعي الذي يهتم بعادات المجتمع وتقاليده ويهتم بالجماعة أكثر من اهتمامه بالأفراد . وهذا الكتاب يمثل التاريخ الاجتماعي لمدينة دمشق ، لكن مؤلفه لم يستطع إنجاءه أو نشره لأسباب نجهلها » كما يقول الأستاذ نعيمة .

وكان الكتاب في الأصل مخطوطة بنسخة واحدة لا ثانية لها ، وجدها المحقق في مركز الوثائق التاريخية بدمشق، وقد كتبها العلاف بخطه قبل وفاته

بفترة قصيرة . » ويبدو أن هذه المخطوطة كانت مسودة لكتاب لم يتح للمؤلف إتمامه ، فقد جاء في آخر فصولها عنوان لفصل لم يتكلم عنه .

### وصف كامل لدمشق وأهلها

هناك فصول كثيرة في هذا الكتاب تتناول وصف دمشق طوبوغرافياً وديموغرافياً وفولكلورياً . وهكذا فإن المؤلف وصف ثياب الناس في دمشق على اختلاف فئاتهم الاجتماعية ووسائل النقل والركوب التي استخدموها في مستهل هذا القرن ، وتناول بحديثه طقوسهم واحتفالاتهم ، من الأعياد والمناسبات الدينية ، إلى حفلات الختان والولادة والأعراس . وعقد فصولاً أفاض في الحديث خلالها عن الحياة الثقافية والنزهات والسهرات والملاهي . وفي الآن ذاته لم يهمل الشؤون السياسية ، فاستعرض واقع الصحافة في تلك الأيام وأنظمة الإدارة في الدولة ، والقضية العربية .

وإن ما يجعل لهذا الكتاب أهمية استثنائية أن كثيراً من الصور التي يعرضها العلاف فيه « لم يبق منها اليوم سوى ظلال لا نكاد نلمحها إلا في بعض الأحياء القديمة... سجلها المؤلف تسجيلاً حياً متحركاً يسمعا فيه الصوت والنغمة واللهجة ، ويرينا الحركة واللون » كما يقول الأستاذ نعيسة في المقدمة التي وضعها لهذا الكتاب .

### أربعة أطباء وكحال !

لقد بدأنا هذا الحديث بالإشارة إلى واقع مهنة الطب كما كانت في مطلع القرن العشرين ، فلنتابعه اذن .

يقول العلاف : لم يكن في دمشق طبيب بالمعنى العلمي ، إنما كان أطباء نشؤوا على أساس التجربة الكسبية من رؤسائهم ومعلميهم ، غير مدينين لأية ثقافة علمية أو أية جامعة طبية ، فكان في دمشق جميعها أربعة أطباء أو خمسة وكحال واحد - أي : طبيب عيون - ولم يكن هناك طبيب جراح لأن الجراحة وطبابة الأسنان والعيون مجتمعة كانت داخلية في اختصاص الجلاطين ، فكنت تدخل دكان الحلاق فتجد فيه أنواع المراهم والقناني الصغيرة ملأى بأنواع

الأدوية الجراحية ، وإلى جانب ذلك ترى ساحبات الأسنان والأضراس معلقة في  
الجدار ، والمبازل الى جانبها ...

ولم يكن في دمشق من المحامين المأذونين المختصين ما يتجاوز أصابع اليد  
الواحدة ، بل كان أكثرهم من أرباب الحرف الأخرى ، تركوا مهنتهم الأولى  
نتيجة إفلاس أو كساد ، وغالباً ما تكون لهم قضية مزمنة مرّت عليها مختلف  
الأدول في المحاكم ، فأكسبهم ذلك المرونة الكافية ليصبحوا محامين أو وكلاء ...  
وبقي الحال كذلك حتى عام ١٩٣٠ ، حين جرى التصنيف ، فخرج بعضهم  
وبقي بعضهم الآخر .

ويوضح العلاف أن القضاة أنفسهم في المحاكم لم يكونوا جميعاً أرباب  
اختصاص ، وكان يتخلل القضاة المأذونين من معهد الحقوق أعضاء آخرون  
يؤخذون بالانتخاب والانتقاء ...

### صيدلية سليم فارس

ولكن ماذا عن المهنة العلمية الأخرى .. الصيدلة ؟

يقول العلاف ان الصيدلة كانت معدومة تماماً في دمشق ومحصورة في حوانيت  
العطارين ، وأقدم صيدلية عرفت في دمشق صيدلية سليم فارس في سوق البزورية ، ولم  
تكن « بشكل فني لأن الأطباء أنفسهم يعطون ويعطون الدواء من عندهم ، فإذا احتاجوا الى  
دواء غريب أجنبي أمروا ذوي المريض أن يشتروه من صيدلية سليم فارس ، وأكثر  
الأدوية كانت تؤخذ من العطارين » « فكان المريض يشتري الدواء من العطارين  
ويركبه بنفسه في داره حسب تعريف العطار ، وكثيراً ما كان يخطيء بالمقادير فتسبب له  
أمراضاً مستعصية أو ازدياداً في الأوجاع والأمراض ... »

### الناس جميعاً .. مهندسون

الأطراف من هذا وذاك أمر الهندسة ... الهندسة المعمارية ، فلا علم لأحد  
بها ، على حدّ تعبير المؤلف « لأن الناس جميعاً مهندسون بالفطرة . يستقل كل  
منهم بذوقه في إقامة داره أو دكانه مستعيناً بالبناء أو النجار أو النحات ،  
وعلى الأسلوب الذي يختاره له ذوقه .

وأما هندسة المياه والجسور والكهرباء والميكانيك والشُعَب الأخرى، فهذه لا تعلم دمشق لها وجوداً عندها .

والحكومة كانت أقل اهتماماً من الأهالي في سائر المهن العلمية والفنية ، وما كانت تقيم لها وزناً ولا تفكر في ناحية من نواحي الإصلاح المحلي أو العمراني أو الثقافي في البلاد » .

كانت دمشق في مطلع القرن العشرين كما يقول أحمد حلمي العلاف تقسّم إلى ثمانية أثمان ، كل واحد منها مقسّم أيضاً إلى أحياء وحارات وأزقة ، وهذه الأثمان هي : القنوات ، مئذنة الشحم ، القصاع ، العمارة ، سوقساروجة ، حارة اليهود ، باب السريجة ، الميدان . ثمّ لما اتصلت الأبنية بقرية الصالحية أصبحت هذه من أقسامها الرئيسية .

### ثلاثة أسواق كبرى

وكما يبدو فانه لا يفصل دمشق الجديدة عن القديمة داخل السور . . . وإنما يعدها جميعاً كلاً واحداً يتم بعضه بعضاً .

وفي المقابل ، فقد كان في دمشق ثلاثة أسواق كبرى تتفرع عنها أسواق أخرى ، وهذه الأسواق هي سوق الحميدية ، ومدحة باشا ، والبزورية . وهي جميعاً مغطاة بسقوف مرتفعة لوقايتها من عوارض الشتاء والصيف .

وبعد أن يقدم حديثاً مفصلاً عن هذه الأسواق والأحياء ، يشير إلى المسألة السكانية في دمشق ، فيرى أن السجلات التي تركها العثمانيون ليست صحيحة نظراً لكثرة تلاعب الموظفين بهاتحت « تأثيرات شتى » مما أدى الى بقاء كثيرين من سكان دمشق مكتومين . إلا أنه مع ذلك يذهب إلى أن عدد سكان دمشق زهاء ثلاثمئة ألف نسمة ، بمن فيهم المستوطنون كالأفغان والعجم والهنود والأرناؤوط والشركس الخ .

### قنباز . . وعمائم مطرزة

ويصف العلاف ملابس الناس في مطلع هذا القرن فيقول إنهم يلبسون القنباز وعليه معطف رقيق ، ويلبسون عمائم مطرزة فوق الطرايبش . ويشرح

محقق الكتاب الأستاذ نعيصة معنى « القنباز » نقلاً عن د. حسن حمامي ، وهذا ينقل بدوره عن المؤرخ المقري قائلاً : هو ثوب طويل يصل إلى مشط القدم مفتوح بكليته من الأمام عريض من الأسفل ثم يضيق تدريجياً نحو الأعلى ، ويُردف الطرف الأيمن عادة فوق الطرف الأيسر ويفلق عند العنق بزر ظاهر .

ويوضح هذا الكاتب أن اختلاف وضع العمامة على الطربوش واختلاف القماش الذي صنعت منه يشيران إلى حالة لبسها الاجتماعية أو الدينية فقد يكون إماماً أو خطيباً لمسجد أو قاضياً أو مفتياً إلخ . . . وقد يكون تاجراً أو عاملاً حرفياً . .

أما الناس العاديون فانهم يضعون على رؤوسهم الطرابيش الحمر . وفي الأغلب فانهم يحزمون أو ساطهم بحزام عريض من الشال المقلم أو من القطن الأبيض أو الحرير . ويضعون بين الشال والقنباز الساعة المدلاة من العنق بخيط حريري أو قطني ، أو السواك ، وإلى جانب الظهر يعلقون البشكير . . . فقد يحتاجونه للوضوء أو لنقل بعض الفواكه أو الخضر أو الخبز ، عند العودة إلى الدار .

### أحذية مكشوفة وقباقيب خشبية

وكان معظم الناس يحتذون الأحذية المكشوفة إلا عند أصابع الرجل ، يحتذونها دون جوارب ، غالباً . ومنهم من كان يلبس القباقيب الخشبية في الشتاء . أما العمال وأصحاب المهن الشاقة فيلبسون السروال الأسود الضخم يضيق عند كعبي الرجل . وكان المتوسطون والأغنياء ينتعلون الأحذية اللماعة ، وفي الشتاء كانوا جميعاً يلبسون الجوارب الصوفية من صنع البلد .

وأما الصناع والعمال فيضعون على رؤوسهم الطاقية من نسيج ملون أو اللبادة من الصوف أو الوبر المضغوط ، ويحزمون فوقها الكوفية أو المنديل أو قطعة قماش أخرى . . ومن الناس من يختارون العقال الأسود فوق الكوفية ومعظم هؤلاء من الأرياف .

## لباس الموظفين .. أفرنجي !

ويقدم العلاف صورة كاريكاتورية ساخرة للغاية عن لباس موظفي الدوائر الحكومية ، لكنها منتزعة من الواقع ، فقد كان «اللباس الأفرنجي وهو جاكيت، صدرية ، سروال ضيق وفوقه معطف في الشتاء . وكان الطربوش هو غطاء الرأس .» وكان هؤلاء يتباهون في وضع بنود الساعات من جانب إلى آخر فوق الصدرية الضيقة في جيوبها ، ويضعون في أصابعهم الخواتم المختلفة ، وعلى أنوفهم أنواعاً مختلفة من النظارات الزجاجية « للدلالة على الانهماك بالأعمال والأمور الرسمية الشاقة ، ووفرة المطالعة والدقة ، ولو كانوا في غنى عنها ، فيستوي في ذلك الشباب والشيوخ من ضعفاء البصر أو سليمي العيون . »

« ويزيد على ذلك أنهم يتطيبون ويمشون في الأسواق في وقع خاص من خطواتهم ، وإذا تكلموا شمروا أنوفهم ، وتكلموا من جوانب أشداقهم بنبرات خاصة للدلالة على أنهم من الرسميين العظام . »

## أفندي .. وبك .. وخانم

« ويتميزون بكلمة : أفندي أو بك غالباً ولا يرضون لنسائهم الا كلمة « خانم » مقرونة الى الأسماء الحقيقية . وكثيراً مايسخرون خادم الغرفة ليحمل لهم المتاع والحضر وحاجاتهم الأخرى الى الدار ، أو يحمل صفارهم . ويمشون أمام أو خلف السيدة في الأسواق ، ثم لا بد في غير الشتاء من أن يكون له عصا « باستون » ويكون رأسه مفضضاً أو مذهباً حسب درجة مكانته في السراي وكفاءته المالية . »

وحين يسير هؤلاء في الأسواق « ينظرون يمنة ويسرة بكبرياء كأنهم أغراب ويرمون الناس بجوانب أحداقهم ، وإذا تكلموا فبرؤوس أنوفهم وكلمات متقطعة ونبرات ملوها الكبرياء والصلف ويتحاشون غالباً كثرة الكلام لئلا يصبح بينهم وبين الناس نوع من التودد وعدم الكلفة . »

في تلك الأيام لم يكن في دمشق من وسائل النقل سوى عربات تجرها الخيل، وكان مقرها في ساحة المرجة « حيث تقف إلى الجانب الشرقي تحت ظلال شجيرات الصفصاف حول حوض ماء مرتفع قليلاً . » وكان لبعض بيوت الثراء في دمشق عربات خاصة بهم «يمتطونها في روحاتهم وغدواتهم وسيرانهم . »

## والحمر البيض للنقل

وكانت هناك واسطة نقل أخرى يجدها المرء في سوق الخيل حيث أعدت الحمر البيض للنقل « ومن علاماتها تلوين ذيلها باللون الأحمر لتعرف بأنها من الحمير المعدة للإيجار » وكانت العادة أن يذهب وراءها أحد السعاة التابعين لأصحابها ، ويبيده عصا أو سوط ، فيركض جرياً على قدميه ، حتى إذا بلغ الراكب المكان المقصود ، عاد الساعي بالحمار إلى صاحبه . . . ويعود راكباً هذه المرة .

. . . وأما الأسفار خارج المدينة ، نحو المدن البعيدة . . . فقد كانت واسطتها الدواب أيضاً ، لكنها كانت تجري في قوافل . . . وعرف أيضاً الخنتور وهو كما يذكر العلاف « بشكل سيارة اوتوبوس كبير تجره الدواب على مراحل بين دمشق وبيروت وسواها ، وفي كل مرحلة قصيرة تتغير الدواب إلى أن ينتهي المسافر إلى مقصوده » .

ويشير هذا المؤرخ إلى الخط الحديدي الحجازي الذي مد في أوائل هذا القرن ، لكنه لم يلبث أن حطمته معارك الحرب العالمية الأولى .

## قصة الأمن المفقود

من جانب آخر فانه يقدم صورة في منتهى البؤس لرجال الأمن في ذلك الزمن ، ذاك أن الأمن كان مفقوداً إلى درجة أن السلطات الاجرائية الحكومية انتقلت إلى وجوه الأحياء ومختاريتها « دفعاً للشرور ولحمل الناس على احترام الحقوق » . وكانت تؤلف في كل حي هيئة من وجوهه والمتنفذين فيه ، هي « بمثابة المجلس الاداري والقضائي والتنفيذي ، بالنسبة إلى أفراد الحي » .

« أما قوى الأمن الحكومية والسلطة الاجرائية الرسمية ، فمكلفة بصيانة نفسها وحفظ الأماكن التي تسكنها : تفتح أبوابها نهاراً لبعض المراجعين ، فاذا كان وقت الغروب أوصدوا أبواب المخافر وسكنوا إلى أسرتهم ومضاجعهم لا يبالون بما حدث وبما يحدث » ولا يجرؤون على الخروج من أماكنهم في الليل ، وخاصة في جوانب المدينة . « وكان هؤلاء يعرفون باسم الضابطية » ولكن الضاد كانت تلفظ ظاء ، وبدهي أن هؤلاء هم رجال الشرطة . . . يومذاك !

« وإذا كان للحكومة طلب من أفراد الحي استعانت بالمختار على استيفاء حقها من ضرائب أو تجنيد أو شكوى صادرة من إحدى المحاكم » .

### عندما يتخاصم حيان

وكان الطابع العشائري يميز العلاقة بين الأحياء ، حتى إذا دخل فرد من حي آخر ، عرفوه على الفور وميزوه ، فإن كانت بين الحيين صداقة أكرموه ، وإن كانت خصومة أوسعوه ضرباً وطردهوه . . . وهكذا حتى يكون صلح بين الحيين ، على يد حي آخر محايد أو أكثر . . . وعندئذ تقام المهرجانات وينزل الحيان المتخاصمان ضيوفاً ثلاثة أيام عند وجوه الحي الذي عقد المصالحة .

أما الأعياد التي كان الناس يحتفلون بها في دمشق ، كما يروي العلاف ، فقد كانت محصورة في الأعياد الدينية : الفطر ، الأضحى ، المولد النبوي ، وهلال نصف شعبان . ويذهب الناس في هذه المناسبات إلى المساجد بأفخر ما لديهم من الثياب والزينة ، وبعد الصلاة يصافح بعضهم بعضاً ويتبادلون التحيات والتهاني بالعيد . وقبل قدوم العيد بيومين كانت أحمال غصون « الآس » تصل إلى دمشق وتنشر في الشوارع والأسواق حزماً صغيرة وكبيرة ، كما هو الحال الآن ، فيشتريها الناس صبيحة العيد ، حين يذهبون قبل بزوغ الشمس لزيارة قبور موتاهم ، فيضعونها عليها .

### الأولاد . . في العيد

ويقدم العلاف وصفاً لما يفعله الأولاد أيام الأعياد ، نلاحظ خلاله أن حفاوة هؤلاء الصغار بهذه المناسبات لم تختلف في هذا الزمن ، عنها في مطلع القرن العشرين ، فإن الأولاد كانوا يجوبون الأسواق بأفخر ثيابهم فيشترون ويفرحون ويطلقون المفرقات ، ويتناولون أطعمة خاصة على كراسٍ واطئة أمام المناضد ، كالقول المسلوق وكان يسمى « نابتاً » . وكان بعض الناس يحضر بعض الضباع أو الوحوش الأخرى فيضعونها في الحوانيت ويقف من يضرب الطبل داعياً الغلمان أن يدخلوا ليشاهدوا عدو الانسان .

. . . يركب الأولاد الآن بعض السيارات في الأعياد ، ولا سيما الشاحنات الصغيرة المصنوعة في اليابان . . وفي مطلع القرن كانوا يركبون الحمير والعربات المجللة بالطنافس أو الخيول أو الهوداج . . على الجمال .



الأراجيح ما زالت هي نفسها ، وإن اختلفت أشكالها وتقنيات صنعها .

### وداع شهر رمضان

وكانت الحكومة المحلية في دمشق تطلق المدافع في اليوم الأخير من رمضان ايذاناً بانقضاء الشهر . . . . . وعندئذ كانت تقوم في المساجد الاحتفالات بوداع رمضان ، مثلما يحدث في نهاية القرن العشرين . . . هذه الأيام ، وياخذ المؤذنون يلحنون عبارات الأسف والحزن على فراق رمضان .

. . . وما برح بعض المسحرين يعملون في بعض أحياء دمشق في رمضان . . . حتى الآن ، والمسحر هو الذي يطوف على البيوت في شهر الصوم قبل الفجر بساعتين ويبيده طبله صغيرة يضرب عليها ويقرع الأبواب . منادياً صاحب كل دار باسمه ، كي يصحو من نومه ، ويتناول طعام السحور هو وعياله استعداداً لصيام نهار طويل . وكانت للمسحر جولة أخرى ، ولكل حي كان مسحر ، صبيحة العيد يتقبل خلالها أعطيات الناس الذين تطوع بايقاظهم بعد منتصف الليل طوال رمضان .

### طقوس . . عيد الأضحى

ولم تكن احتفالات الناس بعيد الأضحى لتختلف عنها في عيد الفطر ، سوى أن الميسورين كانوا يقدمون الأضاحي ، وهي من الخراف المذبوحة على أن يوزعوها قبل صلاة العيد .

. . « ومن ظواهر هذا العيد أن يزحف أهالي دمشق إلى حي الصالحية ، ويصعدوا الجبل - أي قاسيون - بعد عصر يوم الوقفة ، ويلبسون كما يلبي الحجاج في جبل عرفات . » والعلاف يورد أقوالاً مختلفة في تفسير الصعود إلى قاسيون ، على أن أجدرها بالاعتبار أن الصالحية بما تضمه من أرضة قديمة ومزارات ومدارس ، كانت جديرة حقاً بالتقديس . .

وفي جمعة الشهر الهجري « رجب » كان الناس يقصدون حي الصالحية أيضاً ، قبل حلول صلاة الظهر ، فيزورون الكهف المشهور هناك ، والأربعين وضريح ذي الكفل عليه السلام وبقية الأضرحة . .

. . . وفي اليوم السادس والعشرين من هذا الشهر ، أي رجب ، يجتمع الناس في المساجد والدور لسماع قصة المعراج الشريف .

## شعبان ٠٠ ليلة النصف

وإذ يقبل شهر شعبان ويقترب من منتصفه ، فإن الناس يأخذون بمراقبة ظهور هلاله لتحديد ليلة النصف منه . وكانوا يصومون غالباً سحابة نهار ذلك اليوم ، وبعد صلاة المغرب يجلسون في المساجد أو في البيوت ٠٠ مع عائلاتهم لقراءة دعاء نصف شعبان .

٠٠ وإذا دخل شهر محرم « عم الحزن دور المسلمين كافة ، لأن هذا الشهر يحمل معه ذكرى فاجعة كربلاء » .

وكان الحسين بن علي بن أبي طالب قد استشهد في العاشر من شهر محرم سنة ٦٠ للهجرة ٠٠



بين العناوين الكثيرة التي وضعها المؤلف في هذا الكتاب ، هناك عنوان كبير بارز هو « المراسم » وتحت هذا العنوان تحدث عن كثير من المظاهر الاجتماعية والدينية والثقافية في دمشق ، فهناك سوى المراسم الرسمية والدينية السائقة مراسم أخرى ، كالحلتان والجندية والأعراس والولادة والأذكار إلخ .

وفي مراسم الجندية ما هو جدير بالتوقف عنده ، ذاك أنه يشير إلى الفساد الإداري الذي تقشّى في المؤسسات الحكومية في تلك المرحلة من تاريخ السلطنة العثمانية، ويوضح الجانب الطبقي في مسألة سوق المجندين إلى الخدمة .

يقول العلاف : « إذا بلغ الشاب العشرين من عمره ، فقد دخل في سن الجندية الإلزامية ، فتعتمد الحكومات المحلية إلى إصدار جداول للأحياء تحوي أسماء من تشملهم الخدمة الإلزامية ، فتعلقها في الساحات العامة أو مكان المجتمع العام عادة ، وإلى جانب أبواب مساجد المدينة ، ويقوم كل مختار باستدعاء الطبال ليطوف الأزقة والحارات ضارباً على الطبل، ليسهّل عليه تبليغ أوامر الحكومة لأفراد حيّه » .

### من قصة البدل

ويعرف المختار جيداً تلك الأسر التي تستطيع دفع الأموال لتستخلص أبناءها من السوق ، فيتفق معهم على مبلغ معين ، ويدفع عوضاً عن ابنهم المدلل شخصاً مسكيناً ليس له من يدافع عنه .

ويفصل الكاتب ما يجري وقت معاينة المجندين طبياً ، ذاك أن الأطباء العثمانيين كانوا « يتركون من يشترون أنفسهم بمبالغ معينة » أما الآخرون

فانهم يدخلون الجندية حاملين آلامهم وأوجاعهم . « ولذلك كنت ترى أبناء الأغنياء وهم أقوياء الأبدان يسرحون ويمرحون ، ولا يذهب غالباً إلى الجندية سوى المرضى والمعيلين وأرباب العاهات ممن ليس لهم شافع » .

### البحث عن زوجة صالحة

وتجيء الأعراس في جملة المراسم التي يحدثنا عنها العلاف . فعندما يبلغ الشاب الثامنة عشرة ، ويكون من أسرة تستطيع أن تدفع بدل الجندية ، أو يكون قد أتم خدمته الالزامية ، يبدأ أبواه يبحثان له عن زوجة صالحة . فيتذاكران في من يعرفانه من الأقارب ، فإذا لم يوفقا . . ذهاباً أبعد . . وعندئذ تبدأ رحلة البحث عن الخطيبة ، فتذهب أم الشاب وبعض قريباتها الى دار معينة ، كن قد علمن أن فيها صبية يمكن أن تعجبهن .

وفي الدار المقصودة تدير المرأة الأكبر لعبة امتحان الفتاة ، على نحو عملي ، فتطلب اليها أن تأتيها بكأس ماء ، وإذ تجيء الصبية بها ، تشاهد الخاطبة مشيتها وطولها وصحتها . . . وسلوكها . . . وقد تربت على كتف الفتاة إذا أعجبتها وتقبّل فمها تقبيلاً حاراً « لتفحص نَفْسَهَا » ولتعلم إن كانت تدخن . . أم لا ! وحين يكون شيء من القبول ، يبدأ الطرفان يسأل كل منهما عن الآخر . . . فإذا كان القبول تاماً . . . دخلت الخطبة مرحلة جديدة . . . وذهب والد الخاطب مع بعض ذويه لزيارة والد المخطوبة . . فيجتمعون ويتبادلون الأحاديث . . . ثم يقتربون من المناسبة ، ويتفقون على المهر وترتيبات الزفاف .

### المهر . . وعقد القران

إن نفقات العرس كاملة يدفعها العريس وأهله عبر المهر الذي يدفع بعضه مقدماً استعداداً لاجراء حفلة العقد . . والانفاق عليها .

لقد كان نظام ارسال بطاقات الدعوة معروفاً منذ تلك الأيام . وثمة بطاقات لحفل عقد القران ، وبطاقات لحفل العرس الكبير . على أن تنتم المهر تدفع الى أهل العروس عقب عقد القران مباشرة ، فيُخرج والد الزوج « من

جيبه كيساً فيه المهر ويعده أمام الحضور، فيتسلمه والد الزوجة أو وكيلها بحضور ومشاهدة الجميع » . « وقد يصادف أن يحضر العريس العقد ولكن ذلك كان نادراً ، كما أن إلباس خاتم الخطبة ، كما هي العادة اليوم ، والاجتماع الى الزوجة كان ممنوعاً منعاً باتاً ويعتد لديهم من المعيبات والكبائر ، إذ لا يجوز له أن يراها إلا ليلة الزفاف » .

### من تقاليد .. العرس

... وهنا يأخذ أهل العروس في تجهيز ابنتهم ، فأُمها تشتري لها ملابس العرس وتباشر بخياطتها ، ووالدها يعرض الأمر على أحد المنجدين .. من أجل إعداد الجهاز الذي سيملا منزل العروس .. وهو ما نسميه اليوم غرف النوم والضيوف والمعيشة .. من المخدات والمرآة والستائر إلى البيرو أو « الصندوق » وأنواع الخزف .. الخ ... وقبل حفل العرس يكون حفل « الحناء » فتحني العروس يديها وقدميها هي وصديقاتها . ثم تذهب النسوة من قريبات العريس والعروس إلى الحمام بدعوة من أم العروس ... وفي هذا اليوم يحجز الحمام كله لهذه المناسبة فلا يدخله إلا المدعوون .

ومن جانب آخر يستحم العريس أيضاً مع بعض أصدقائه في حمام السوق ثم يحلق حلقة العرس ... ثم يقصد دار أحد الأقرباء لأجراء « التليسة » وهنا يرتدي العريس ثيابه الجديدة .. ويخرج في موكب كبير منظم اصطف فيه الرجال في عراصة منظمة تضيء القوانيس فيها الطريق ، وتدوي هتافات وأهازيج الرجال ... واذ يصلون الى دار العريس يودعونه بالأهازيج ويمضون .

### « حق الشعر » .. ليلة الزفاف

هناك سلسلة من مراسم العرس يعرض لها العلاف بالتفصيل ، منها مثلاً « حق الشعر » وهو مبلغ من المال يقدمه العريس لعروسه ليلة الزفاف .. بعد أن يخلو إليها . فهو يبادرها بكلمات مألوفة « وتبقى هي صامته خجلاً ثم يداعبها قليلاً حتى تنفرج أساريرها ، فيقدم لها بعض النقود أو قطعة مجوهرات . وتبقى هذه الأفراح أسبوعاً كاملاً .

وعند الصباح « يخرج العريس ووالده إلى السوق ويستبضع بعض حاجيات

نسائية من جوارب ومحارم وعطور وأشباهها وتسمى هذه « الصرّة » فيعود بها إلى الدار مع قطعة من المجوهرات .. فيسلم ذلك إلى العروس » .

.. ولكن قبل ذلك .. وحين يصل موكب العروس إلى البيت الذي سيصبح منزلها يبدأ احتفال خاص كانوا يسمونه « التفتيلة » تنفرد فيه إحدى المغنيات فتقول بصوتها العذب كلاماً تردده النساء المدعوات ، وهنّ يطفن ببطء حول باحة الدار ... من ذلك مثلاً قولها :

يسعد صباحك يا فلة أفرنجية • يا ورد على أمه يا خلقة إلهية •  
لو قدموا لي بدالك من الألف للمية • ما أهوى بدالك ولالي من أحد نية •



يقدم أحمد حلمي العلاف ، في هذا الكتاب ، لمحة عامة سريعة ، عن الكيفية التي كان الناس يمضون فيها ليالي رمضان بعد الافطار ..

### في ليالي رمضان

والواقع أن الكثيرين منهم كانوا يقصدون المقاهي بعد الافطار ، وكانت منتشرة في دمشق انتشاراً واسعاً ، فكان في الحي الواحد مقهيان أو ثلاثة على الأقل . يجلسون فيها يشربون القهوة والشاي ويدخنون النارجيلة ويلعبون الضومنة .. أو الورق أو الشطرنج ، ويستمعون في الوقت ذاته إلى الحكواتي أو المخايل ، وهو نفسه لاعب خيال الظل أو الكركوزاتي .. كما كان يدعى في الأغلب ...

ولم يكن ضرورياً أن يكون في كل مقهى حكواتي أو كركوزاتي ... إلا أن بعض المقاهي كانت تسعى لأن تستدعي أحدهما في شهر رمضان .. خاصة أن الرواد يكثرون بعد الافطار ..

### خيال الظل .. في الذاكرة

المرّة الأولى التي شاهدت فيها كركوز .. تعود إلى سنوات الطفولة الأولى . وكان ذلك في شهر رمضان أيضاً . كنا مقيمين يومذاك في أعلى حي المهاجرين ،

وقد شاء أحد الفتيان أن يجرب حظه في هذا المجال ، فنصب الخيمة المعروفة في ساحة كانت مكشوفة في الحي ٠٠٠ ولا أذكر إن كان قدّم عروضاً أخرى بعد تلك الليلة من رمضان ٠٠ لكن الحادث بقي في الذاكرة ٠٠ لأنه كان جديداً وطريفاً في عيني طفل لم يتجاوز عمره خمس سنوات .

٠٠ وبعد أن انتقلنا للإقامة في بيتنا القديم في دمشق القديمة ، أذكر أنني كنت أذهب في رمضان، مع أخي الأصغر، لنشاهد عروض كركوز بعد الافطار في مقهى حي العمارة . وكان موقعه في جوار الباب التاريخي المشهور والمعروف باسم « باب الفراديس » .

ولم تمضِ عدة سنوات حتى كان أحد أقربائنا في الحي « مئذنة الشحم » قد استأجر مقهى ، وفي شهر رمضان استدعى واحداً من لاعبي خيال الظل اسمه أبو عزة الكركوزاتي . وفي الحقيقة فإن هذا كان آخر عهدي بخيال الظل . وفي ما أذكر فانه كان عام ١٩٤٨ .

### كره كوز ، عواظ ٠٠ في الخيمة

على أن العلاف إذ يتحدث عن الملامح في دمشق يقدم وصفاً كاملاً لما يسميه « حفلات كره كوز » ، ولنسمعه يقول :

« يجلس اللاعب خلف ستارة وأمامه منضدة وهذه الستارة تسمى خيمة كره كوز - ويضرب المثل بوهنها لأنها تربط عادة بالخيطان . يجلس اللاعب خلف المنضدة وييده عدة قضبان رفيعة وطويلة ، ينتهي رأس كل قضيب بقطعة من الكارتون الملون بشكل رجل، ولباس وهندام خاص ، له مفاصل ليديه ورجليه ، أو بشكل امرأة أو طفل . وأمام اللاعب بعض الشموع مرصوفة الى جانب بعض . فإذا مدّ القضبان المنتهية بأشكال الأشخاص والدمى المذكورة ، أنشأت خيالا على الستارة بالشكل المثبت على رأس القضيب .

ومن أسماء تلك الدمى الشهيرة : كره كوز ، عواظ ، مدلل ، ضابطية ٠٠ فإذا أراد اللعب يبدأ أولاً بأنغام خاصة، والسامعون كلهم في المقهى ينظرون ويسمعون . وهو وخيمته إلى زاوية من جوانب باحة المقهى . ينظرون إلى الخيالات المرتسمة على الستائر . وبعد الغناء يقص قصة ويبرز الأشخاص كأنما هم يتكلمون ويتنقلون ، فهو بذلك أشبه بالسينما الناطقة .

وينتقل الكاتب إلى الحديث عن فن اللاعب وقدرته على تحريك الأشخاص المتعددين وتقليد أصواتهم ، واحداً واحداً ، بحيث يوهم المتفرجين بوجود حياة كاملة وراء الستارة ، فيقول :

ومن براعة اللاعب مهارته في تغيير لهجاته وصوته على حسب القصة التي تدور بين أشخاصها ، فيبرز كره كوز متكلماً عنه ، ويخاطب عواظ ويخاطب أشخاصاً خيالية كثيرة ببراعة ممتازة ، بينما هو يشغل وحده بمفرده ، ويحرك الدمى بمهارة فائقة ، فيكون من نتيجة تلك الخيالات القصصية بعض المواعظ والحكم ... والناس ينظرون ويضحكون .

### الحكواتي .. والتسلية في رمضان

وكان للحكواتي دور كبير في التسلية في ليالي رمضان .. في مطلع هذا القرن ، وقت كانت الأُمِّية متفشية ، ولم يكن الكتاب منتشرأ ... ولا كانت وسائل الثقافة والتسلية الحديثة كالإذاعة والتلفزيون .. قد دخلت البيوت .. فان كثيراً من الدور ظلت في دمشق نفسها حتى الخمسينات محرومة من نعمتي الماء والكهرباء .. فكان الناس يتجمعون في ليالي رمضان ، في منزل وصلت إليه الكهرباء ، فكان فيه راديو .. وما زلت أذكر تنقلات الناس ، في حيناً في رمضان .. من منزل إلى آخر .. وكانت السهرات تتواصل وتستمر حتى يقترب موعد السحور .. وخلال ذلك فقد كانت تقوم ألعاب ، ويشترك فيها الساهرون جميعاً .. لعل أشهرها لعبة «عروستك» .

يقول العلاف في وصف هذه اللعبة : ينفرد أحدهم إلى جانب ، ويتفق الجميع خفية على شيء معين بينهم ، وعندما يعود يسألونه واحداً واحداً ، ملفزين ، عن الشيء المقرر بينهم حتى يدركه ويعرفه تماماً . فمثلاً لو كان المقرر بينهم «المقص» فيسأله أحدهم قائلاً : عروستك بتقطع وبتلحش ، فيقول بدوره مثلاً : «سكين» . يقولون له : لا .. يسأله الثاني ويقرّب للفهم : عروستك لها نابان طويلان ، أو : عروستك أذناها ملتصقتان بفكيها ... أو عروستك صلبة مثل الحديد . أو : عروستك .. لسانها بشطلين .. فاذا عرفها قام مقام المسؤول الشخصي الذي أوضح له فعرف .. وهكذا .. ثم يقوم

•• ويظل اللعب دائراً ، وربما انتقل الساهرون من لعبة إلى أخرى ، حتى يدوي في الفضاء •• صوت المدفع الأول •• معلناً اقتراب موعد الامساك •

### مراسم استقبال رمضان

ربما تغيرت مراسم استقبال شهر رمضان المبارك الآن عنها في مطلع هذا القرن ، ولكن العلاف يتناول هذا الموضوع في صفحات تناثرت بين جنبات الكتاب • وتستطيع الذاكرة أن تضيف إليها ، بعض ما استطعنا أن ندركه ، ونحن أطفال في سنوات الأربعينات • ويمكن القول إن بعض الفئات الاجتماعية الميسورة ، إضافة إلى كثير من قاطني الأحياء الشعبية في دمشق وسواها من مدن سورية ، ما يزالون يعيشون مراسم هذا الشهر الذي تنزل فيه القرآن الكريم ، مثلما وصفها مؤلف هذا الكتاب •

إنه لا يشير إلى التقليد القديم المتبع في أكثر الأقطار الاسلامية ، إذ يلتمس الراصدون هلال رمضان ، بل يكتفي بالتنبؤ به بأن الناس يحاطون علماً ببدء شهر الصوم لدى سماعهم أصوات المدافع ، وهذا ما يسميه الناس : الاثبات •

### يوم عشا صائم

يقول حلمي العلاف : عندما يتحقق انتهاء شعبان المبارك ، يقوم الناس عشاء ذلك اليوم بصلاة التراويح في المساجد ، ويهيئون طعام السحور من غروب شمس ذلك اليوم بعد أن يسمعوأصوات المدافع إيذاناً بحلول شهر رمضان • ويسمي الناس آخر غروب نهار من شعبان « يوم عشا صائم » فتختلف أوقات العمل بالنسبة إلى الصائمين ، فإذا كان وقت العصر انتهت الأعمال الرسمية بالنسبة إلى الموظفين ، وكذلك بعض التجار وأرباب الصناعات الأخرى ، والشاقة منها • وبعد صلاة العصر يصفون الى تدريس فقهاء المساجد ويستعلمون عمّا يفسد الصيام ، وعمّا ينبغي عمله من الخير والاحسان •

ثم يتابع وصفه لما يفعله الناس في أول يوم من رمضان ، مما سيكررونه باستمرار طوال أيام هذا الشهر فيقول إنهم بعد صلاة العصر « ينفضّون إلى السوق فيهيئون طعام الافطار ، وما يتخلله من بهارج بالنسبة



لمواسم السنة من فواكه وأكول مختلفة . وكثير من الرجال يشرفون على إعداد طعام الافطار بأنفسهم ، أو يؤازرون نساءهم قصد المعاونة والتسليية » .  
« فاذا سمعوا طلقة المدفع جلسوا حول المائدة وقرأ أكبرهم أو ربّ الدار الدعاء الآتي :

اللهم لك صمت' وبك آمنت وعليك توكلت . اللهم أنك أعنتني فصمت ورزقتني فافطرت . ذهب الظمأ وابتلت العروق ، وحصل الأجر باذن الله .

... ثم يباشرون الطعام ، فاذا انتهوا قاموا إلى صلاة المغرب في دورهم أو في المساجد القريبة . وظلوا كذلك إلى ما بعد أداء صلاة العشاء والتراويح . ويعودون إلى مجالسهم الخاصة وسهراتهم وسميرهم مع ذويهم أو أصحابهم » .

### المسحّر قبل الافطار وبعده

وبين التقاليد الاجتماعية التي كانت سائدة في رمضان وأدركها جيلنا طواف المسحّر على الدور قبل الافطار بساعة، يضرب على طبلة فيُخرجون إليه مختلف الأطعمة فيضعها في زنبيل ، أي وعاء طويل ، ولديه صفح فارغة أخرى يملؤها طعاماً ، ويعود بها إلى داره ، فيتناول منها كفايته ، ويوزع البقية على جيرانه المعوزين .

ويتحدّث جمال الدين القاسمي عن المسحّر في قاموس الصناعات الشامية فيقول : هو من يوقظ الناس لتناول السحور في شهر رمضان . يدور على البيوت قبل الفجر بساعتين وبيده طبلة يضرب عليها بجلدة ، ويتغنّى بأقوال مختلفة ، فينبه أصحاب البيوت ، وكل محلة لها مسحّر مخصوص بها حين دخول وقت السحور ، فينبه أصحابها ، ويدور عند الغروب على أصحاب تلك الدور فيعطونه من فضل طعامهم .

ويذكر العلاف أن هذا المسحّر ، يطرق الأبواب ، منادياً صاحب كل دار باسمه ، كي يستيقظ ويوقظ أفراد أسرته لتناول طعام السحور ، وخلال ذلك يقول : يا نايم وحّد الدايم . أو : يا نايم وحّد الله . قل لا إله إلاّ الله . على أن شهر رمضان المبارك ، ليس هو الشهر الوحيد الذي يصومه الناس في

دمشق ، فان بعضهم كان يصوم شهرين قبله : رجب وشعبان وهذه متتالية هي الأشهر الثلاثة التي تسبق عيد الفطر .

### ولكل شهر طعام خاص

على أن الأكثرين يحتفلون بالسابع والعشرين من رجب ، وبنصف شعبان وبليلة السابع والعشرين من رمضان . ولكل يوم عندهم من هذه الأيام دعاء مأثور ، ولكل شهر طعام خاص .

أما السحور ، فان الناس يقومون له قبل أذان الصبح ، فيتناولون الخفيف من الطعام وهو نفسه ما يسمى : السحور . وينتهي وقته قبيل أذان الصبح ، اذ يسمى : وقت الإمساك ، فيمسك الجميع عن كل ما يدخل الفم من غذاء أو ما يسبب إفساد الصيام . . أو الإفطار . . كما أنهم يمسون عن إخراج فواحش الألفاظ . . ويبقون كذلك الى غروب اليوم التالي .

في كتابه الجميل « حديث دمشقي » ، وفيما كان يتحدث عن احتفالات الناس في دمشق بالأعياد ، وأساليبهم المختلفة في المعايدة ، أي تقديم التحية والتهنئة بقدم العيد ، يتناول الأستاذ نجاة قصاب حسن أسلوب إرسال بطاقات المعايدة ، وخلال ذلك يروي الحكاية التالية ، فان أحد الوجهاء قال لمرافقه : هات « الكروت » لنعايد . . . ثم ذهب . . وكان يوعد للمرافق أن يصعد إلى كل منزل من منازل أصحابه فيدق الباب ويناولهم « كرتاً » . وهكذا فلم تمرّ بضع ساعات ، حتى سأل الوجهيه مرافقه أخيراً : كم كرتاً بقي معك ؟ فقال : الأصّ السباتي . ونظر الوجهيه فوجد مرافقه لم يفهم عليه المقصود وإنما أخذ « كروت الشدة » أي : ورق اللعب . وكلما دقّ على باب أعطاهم كرتاً منها ، على حسب حظّهم . وترك « الأصّ السباتي » للآخر .

### آخر عشرة أيام . . من رمضان

وعلى الرغم من أن أسلوب المعايدة هذا ، هو في غاية اللطف والابتعاد عن الكلفة ، فان الأستاذ قصاب حسن يلاحظ أن اللجوء إليه قد خفّ في الوقت الحاضر ، وكاد العيد يتحول إلى أيام راحة فقط و «سيارين» خارج المدينة . على حين كان الناس يستعدّون لأيام العيد في الأيام العشرة الأخيرة من رمضان

المبارك • وكانوا قد قسّموا هذه الأيام في ثلاثة أقسام : عشر المرق • وفيه يهيئون لأسرهم وقت الافطار صنوف الطعام • وعشر الخرق ، وهو الأيام العشرة التالية من رمضان ، وفيها يجهّزون الألبسة الجديدة • أما العشر الثالث ، فكان يدعى : عشر الورق • وخلالها يأخذ الناس بتحضير حلوى العيد بأنواعها المختلفة •

إن أحمد حلمي العلاف يفصّل الحديث كثيراً عن أصناف الحلوى التي كانت تحضّر في البيوت وتخبز فيها أيضاً •• أو ترسل إلى الأفران لخبزها هناك •••

على أن الفئات الغنية كما يقول كانت تستحضر الحلوى حاضرة جاهزة للأكل ، من ذلك مثلاً : كل واشكر • بقالوة ، كنافه مبرومة • أصابع قشدة • صرر • شعيبات • الخ ••

### الدعوة إلى طعام العيد

ومن العادات المألوفة ، ما لاحظته العلاف من أن المترفين يدعون لطعام العيد الذي يكون بعد أداء صلاة العيد • فهم يدعون بعض ذويهم من المعسرين فيتناولون طعام العيد على سفرة واحدة • كذلك رؤساء الحرفة ، يدعون صنّاعهم وأجراءهم الى طعام العيد ، ويعطونهم فوق ذلك بعض المال ويسمونهم : « عيديّة » وكانوا يفرحون بها •

وهناك تقليد ما زال متّبِعاً حتى الآن ، مما ذكره الكاتب ، فاذا عاد أحد الأصحاب أو الأقارب أصحابه أو أقاربه ، فإنهم كانوا يقدمون له الحلوى أو الملبّس • وعند خروجه يعطي صغار صاحب البيت قليلاً من المال ، يكون قد هيّأه في جيبه لهذه الغاية قبل زيارته .

### من طقوس العيد

على أن للعيد وجهاً اجتماعياً آخر في دمشق ، يتمثّل في زيارة قبور الأقرباء الذين مضوا للقاء وجه ربّهم ، يقول العلاف :

« فاذا كان قبل العيد بيومين ، تَفِدُ أحمال غصون « الآس » إلى المدينة

وتُنشر في الشوارع والأسواق حزمًا صغيرة وكبيرة ، فيقبل الناس على شرائها ويهيئونها لزيارة موتاهم صباح أول يوم العيد . . قبل بزوغ الشمس . . . . . ويوم الوقفة كنت ترى « كل حانوت إلى جانبه أكياس الأرز والسكر وصحاف السمن الفاخر ، وعليها شتى الزهور الملونة » . كما يهيىء الباعة « شتى أنواع السكاكر وأدوات التسلية » : وخلال أيام العيد ، يقبل الأولاد بأفخر ملابسهم ويجوبون الأسواق ، فيشترون ويفرحون ، ويطلقون المفرقات ويركبون الحمير المعدة للتنقل في مسافات قصيرة ، والعربات المجلّلات بالطنافس أو الخيول أو الهودج . . أو يركبون القلاية ذات الأسرّة الأربعة فتدور بهم دورات محورية ، أو الدويّخات ذات الأسرّة المتنوعة الأشكال والخيول المطهّمة المصنوعة من الخشب .

وكان الأولاد ينقدون أصحاب هذه الألعاب قطع الدراهم الصغيرة كالنحاسة أو أم الخمسة أو المتليك . . . وهي أنواع من النقود العثمانية التي كانت تستخدم في أوائل هذا القرن .

### تمديد أيام العيد

ويفصلّ العلاف الحديث ، حول كيفية احتفال الأولاد في الشوارع والساحات في العيد . . ويستعرض أنواع الطعام والحلوى التي كانوا يقبلون عليها . . . وهي مظاهر بدأت تختفي ، بتسارع من حياة الناس ، لا . . في دمشق وحدها ، بل في مختلف المدن الأخرى . . .

وهو يذكرنا ، بأن الناس كانوا يستمتعون بأيام العيد ، حتى إنهم يريدونها ألاّ تنتهي ، وإذن ، فانهم كانوا يمدّدونها يوماً آخر ، يطلقون عليه هذا الاسم الطريف : جحش العيد . . فاذا انقضى انصرف الأولاد إلى مدارسهم والناس إلى أعمالهم وشؤونهم كالمعتاد . . متأسفين لسرعة انقضاء فترة العيد والسرور .

### يوم كانوا يبحثون عن قاريء

لم أدهش كثيراً وأنا أقرأ في هذا الكتاب أن بعض الناس كان ينتقل من قرية إلى أخرى أو من حي إلى حي باحثاً عن يقرأ أو يكتب له رسالة . ذاك أنني أدركت أواخر هذه الحقبة في بدايات الأربعينات . كنت وقتها في الصف الثالث أو الرابع الابتدائي ، وقد

حدث أن بعض أقربائنا تطوع للخدمة في أحد الجيوش الأجنبية ، ثم استقر زمناً في القاهرة ، حيث بعث إليهم بأولى رسائله • لقد ناداني هؤلاء وكانوا جميعاً كباراً في السن ، وليس في دارهم انسان واحد يعرف القراءة أو الكتابة • فكان أن قرأت أمامهم الرسالة ، وجلست أكتب جوابها •

إن أحمد حلمي العلاف لا يقدم كشفاً إحصائياً عن مدارس دمشق في مطلع هذا القرن لكنه يحاول أن يعددها في حين يتصور أن ما يذكره هو كل المدارس التي كانت قائمة • ونحن لا نملك بالطبع أن نناقشه في ذلك ، وإذا كنا أقرب إلى تصديق روايته ، حول المدارس المشهورة آنذاك ، فلا نشك في أن ثمة مدارس أخرى ••• غير مشهورة •• غابت عن قلمه •

يومذاك ، أو قبيل الحرب العالمية الأولى ، لم يكن في دمشق مدارس ثانوية بالمعنى الذي نعرفه اليوم • ربما كانت المدارس الأجنبية التي افتتحتها البعثات التبشيرية في دمشق حينئذ ، تقدم لطلابها مناهج للدراسة الثانوية ••• غير أن المؤلف لا يقدم إيضاحاً حول هذه المسألة •

### مدارس دمشق ••

كان هناك عدد من المدارس الابتدائية الرسمية لا يتجاوز ثلاث مدارس وكان الانتساب إليها منوطاً بموافقة لجنة تدعى « الجمعية الخيرية » برئاسة العلامة الشيخ طاهر الجزائري • الأولى كانت في القيمرية • واثنتان قرب الجامع الأموي وتدعى « الجمقمقية » • أما الثالثة فكانت في الصاحية وعرفت باسم « الجامع الجديد » ••• وبعد إعلان الدستور العثماني عام ١٣٢٦ هـ ١٩٠٨ م انشئت المدرسة الابتدائية الرسمية الرابعة باسم : مدرسة الملك الظاهر •• وقد ظلت قائمة حتى أواخر الستينات •• غير بعيد عن سوق الحميدية وفي موقع قريب منها ، في زقاق « المرستان » •• كانت المدرسة الوحيدة للاناث •••

••• ويبدو أن معظم المدارس التي أنشأتها البعثات التبشيرية ما زالت قائمة هي نفسها حتى اليوم • وإذا كان العلاف لم يذكر « اللاييك » وهي التي تدعى الآن « معهد الحرية » فإنه ذكر « الفرير » : الاخوة • و « العازارية » : المنصور • و « الأليانس » التي ما زال مبناها وحده قائماً فحسب قرب سور دمشق الجنوبي • إضافة إلى مدرسة « الانكليز » • وقد لاحظ أن الطلاب الذين يتلقون الدروس في هذه المعاهد هم من أبناء الثراء واليسر والغنى •

## ومدارس أخرى •• خاصة

••• وكانت هنالك مدارس أخرى خاصة أنشأها أهل دمشق أنفسهم ، ولكننا لا ندري شيئاً ، من سويتها التعليمية ، أهي ابتدائية فحسب ، أم ابتدائية وإعدادية ، فالعلاف لا يوضح هذه النقطة .

ويعدد من هذه المدارس «الأمينية» ، وهي قديمة جداً ، وما يزال مبناها قائماً في سوق الحرير قرب المسجد الأموي . والعثمانية ، وهي الأخرى تحتل مبنى قديماً جدّ في مطلع هذا القرن على يدي منشئها كامل القصاب . ولكن العلاف لا يذكر ذلك . أما المدرسة التجارية ، فقد كانت شمال المسجد الأموي تكاد تلاصقه . وثمة أيضاً المدرسة العلمية الوطنية والريحانية والجباليين ، ومدرسة جمعية الاسعاف الخيري . وما برحت في موقعها نفسه •• غرب مبنى مجلس الشعب ، وهي خاصة بأبناء الفقراء .

## معلمون •• من وجوه سورية

ومن طريف ما يذكره العلاف حول مدرسة الشيخ كامل القصاب ، الذي كان من وجوه دمشق الثقافية والوطنية أنها ضمت بين أساتذتها نخبة من زعماء سورية وأدبائها وعلمائها ، فقد كان الدكتور عبدالرحمن الشهبندر يعلم طلابها الخطابة . والدكتور أسعد الحكيم يلقنهم أصول التمثيل . والأمير عارف الشهابي كان أستاذ التاريخ العربي فيها ، وعبد الوهاب الانكليزي ، وهو أحد شهداء أيار ١٩١٦ كان أستاذ الجغرافيا . وكان الشاعر الكاتب الثائر المعروف خير الدين الزركلي أستاذ الانشاء في هذه المدرسة ، أما عالم اللغة سليم الجندي ، فقد كان يدرّس النحو فيها .

## مدارس تعليم القرآن

••• من جانب آخر ، تناثرت في أطراف دمشق مدارس كثيرة كانت مهمتها الأولى تعليم القرآن الكريم . وبعضها كان الشيوخ يتولون التعليم فيها ، وبعضها الآخر كانت تتعهدا امرأة تسمى « خجا » وهذه الكلمة ، كما يوضح محقق الكتاب الأستاذ علي نعيمة تركية معناها معلم ، وتطلق على المعلمات في مدارس دمشق القرآنية .

على أنها كانت تعلم التلاميذ أيضاً القراءة والكتابة ومبادئ الحساب ••

ولكن أسلوب التدريس فيها كان متخلفاً جداً ، فالألف ( ١ ) مثلاً هي هذا الشيء الذي لا نقطة عليه ، والباء لها نقطة من تحتها ٠٠ وللتاء اثنتان من فوقها وهكذا ٠ وكان المعلمون الشيوخ قساة في تعاملهم مع الأولاد الصغار ، يضربونهم بقضبان من شجر السفرجل ، أو يضعونهم على « الفلقة » التي تضم القدمين معاً ٠٠ ثم يضربونهم بالقضبان ، وكان هذا العقاب من نصيب المقصرين أو المتخلفين عن الحضور أو من يشكوهم أهلهم لهذا السبب أو ذاك ٠ ولعل هذا هو الذي جعل تلميذاً كالدكتور كاظم الداغستاني يهرب من مدرسة الشيخ ٠٠ إلى مدرسة الخجا ، كما يحدثنا في كتابه « عاشها كلها » ٠

كان في دمشق كلها مدرسة إعدادية واحدة هي التي عرفت باسم « مكتب عنبر » وغدت ثانوية بعد الحرب العالمية الأولى ٠٠٠ حتى الثلاثينات ٠٠٠ ثم أصبحت في الأربعينات إعدادية للفنون النسوية ٠٠٠ وهي الآن في سبيلها لأن تكون أحد متاحف دمشق ٠

وينقل الأستاذ نعيمة محقق الكتاب عن العلامة محمد كرد علي أن « عنبر » في الأصل دار خاصة لثري يحمل الاسم نفسه ، ثم وضعت الحكومة العثمانية يدها عليها لدين كان لها على صاحبها ٠٠ فجعلتها مدرسة إعدادية عام ١٣٠٤ هـ ١٨٨٦ م ٠٠٠ وكان معظم أساتذتها من الأتراك ما عدا معلمي اللغة العربية والعلوم الدينية وبعض المعيدين ٠٠٠ وكان يتقاطر إليها التلاميذ من مختلف أرجاء الامبراطورية العثمانية ، فبينهم الدمشقي والحلبّي والأناضولي والبلقاني والشركسي والألباني ٠٠ الخ ٠٠ ولعل هذا هو الذي جعل هذه المدرسة تخصص قسماً منها لمبيت الطلاب ونومهم وطعامهم ٠ ولم يكن يقدر على ذلك سوى أبناء المنعمين ٠

٠٠٠ أما الإعدادية الأخرى التي كانت في دمشق ، فكانت تدعى « المدرسة الرشدية العسكرية » وكانت سنوات الدراسة فيها ستاً هي الأخرى ، وكان فيها قسم داخلي أيضاً ٠ ومن يتخرج منها يقبل في المدرسة الحربية العسكرية في استانبول ٠٠ وكان معظم طلاب هذه المدرسة من أبناء العسكريين العاملين في الجيش العثماني ٠

ويخيل إليّ ، استنتاجاً ، أن موقع هذه المدرسة كان هو نفسه الذي قامت فيه مدرسة معاوية ٠٠٠ عند مدخل البعصة قرب ساحة المرجة ٠٠ حيث يعاد الآن بناء مسجد « يلبغا » ٠٠ ولما كنت في طفولتي قد زرت مدرسة معاوية عدّة مرات ، فأنني أعتقد أنها وريثة المدرسة العسكرية ٠٠ بكل تقسيماتها العمرانية ٠